كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز
شعبة علم الاجتماع الفصل الرابع
مجزوءة مدخل إلى الاقتصاد
ذ: عبد الغني زياني

المحاضرة: السادسة

عنوان المحاضرة: الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون

نناقش في هذه المحاضرة أراء وأفكار ابن خلدون في علم الاقتصاد، والتي نتطرق فيها إلى مسألتين أساسيتين تبين لنا حقيقة تفكيره الاقتصادي وهي: علاقة العمران البشري بالاقتصاد، وعلاقة العمل وتأثيره في الاقتصاد.

في مؤلفه المقدمة تناول ابن خلدون في الباب الخامس، المسألة الاقتصادية وأحاطها بالعديد من الأفكار والآراء، شكلت مدخلا قوي وممهدا لتأسيس علم الاقتصاد، جعلت منه رائدا في علم الاقتصاد، من جهة والاقتصاد الاجتماعي من جهة ثانية.

إذن، كيف نظرا ابن خلدون للظواهر الاقتصادية المختلفة؟ وما علاقة العمران البشري بنشأة علم الاقتصاد؟ ما مشروعية أفكار ابن خلدون في تناوله للمسألة الاقتصادية؟

تنطلق أفكار ابن خلدون حول علم الاقتصاد من موضوع العمران البشري، والذي قسمه إلى قسمين ليس على أساس النوع، وإنما من حيث الدرجة، وهما العمران البدوي الذي يفضي إلى العمران الحضري، فالناس عند ابن خلدون يجتمعون عادة من أجل التعاون وتحصيل المعاش، وأنهم يبدؤون بالضروري والبسيط من المعاش تم ينتقلون بعد ذلك إلى الحاجات الكمالية، لذلك فالمرحلة الأولى يكون في العمران النشاط الاقتصادي الرئيسي هو الزراعة والرعي... فهو النشاط الذي يدر ربحا بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحقق الضروري للعيش. غير أنه لا يلبث أن يدر على بعض الأناس أرباح تزيد من غنائمهم وتميل بهم إلى الرفاهية، وهذا من شأنه أن يزيد من تعقيد حياتهم فيصبحون غير قانعون بالضروري من حاجاتهم، مما يدفعهم إلى طلب الكمالي، وهنا يدخلون في دوامة لا تنتهي من الحاجات التي شملتهم ومن حاجة إلى أخرى، إذ"أن طلب الكمالي لا يقف عند حد فهو سرعان ما يتحول إلى ضروري وهكذا، وفي هذه الحالة يكون الانتقال في نظر ابن خلدون من حال البداوة إلى حال الحضارة هو الرأي الذي يعد فهما علميا لكيفية تطور حياة المجتمعات الإنسانية "[1]. منها: "أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري، وأن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها وأن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها وأن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع"[2].

ومن أرائه الاقتصادية أيضا يذهب ابن خلدون إلى أن الميل إلى الرفاهية يتطلب حاجات كمالية، وأن استمرار ذلك الميل يزيد من الإقبال على هذه الحاجات ومن شأن ذلك تنشيط الصنائع التي تنتجها هذه الحاجات وتشجيع الصناع على الإكثار منها والتفنن في

---

[1]-.حسن عمر، تطور الفكر الاقتصادي، دار الفكر العربي، ص.68.
[2]- أسامة القاضي، ابن خلدون رائدا علم الاقتصاد، المركز العربي للدراسات والأبحاث، ص 45.

صناعتها، وبمرور الوقت يصبح هؤلاء الصناع مهرة في صناعة تلك الحاجات، وهذا يبين أن الميل إلى الرفاهية يؤدي إلى ازدهار الصناعة وتنوع فنونها.

وإذا تسألنا جميعا مع ابن خلدون: لماذا كانت الأمور على هذا النحو؟ ولماذا انتهى المجتمع البدوي إلى المجتمع الحضري؟ أجابنا بقوله: "إن أجيال البدو والحضر طبيعية لابد منهما"[3]. وهذا يعني، أن المجتمعات لديه تسير بحسب قوانين معينة، لا يمكن الخروج عليها وهذا في رأينا بداية الفهم العلمي للحياة الاجتماعية، وخروج عن النظرة الإصلاحية التي ظلت سائدة قبله، منذ بدأ التفكير الإنساني بدراسة المجتمعات البشرية.

يربط ابن خلدون بين وجوه الكسب وتطور الحياة الاجتماعية، فيرينا أن" ازدياد الكسب هو سبب هذا التطور، وأن المبالغة في جني ثماره، هي سبب المبالغة في اتساع الحضارة"[4]، من هنا يمكننا أن نستخلص أن حياة البداوة سابقة على حياة الحضارة: وأن الحضارة البسيطة سابقة على الحضارة المعقدة، وأن الضروري سابق على الحاجي والكمالي. وفي هذا الصدد يقول:" ولاشك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، لأن الضروري أصل، والكمالي فرع ناشئ عنه: فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما، لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً، فخشونة البداوة قبل رفه الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها، ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده، عاج إلى الدعة، وأمكن نفسه إلى قياد المدينة وهذا شأن القبائل المتبدية كلهم [5]".

ما يعنيه هنا ابن خلدون، أن اختلاف أحوال الناس الاجتماعية مرتبط باختلاف أحوالهم الاقتصادية: فأحوال البداوة مرتبطة بانتحالهم الزراعة وتربية الحيوان، وهم يظلون كذلك ما داموا في هذا النطاق لا يتعدونه، لكنهم "متى اتسعت أحوالهم المعاشية بالغنى والرفه مالوا إلى الدعة وكثرت حاجاتهم الكمالية، فتأنقوا في المأكل والملبس وتوسعة البيوت والمدن، هذا من شأنه أن يؤثر في ازدياد الأعمال وتنوعها، ويؤدي إلى اختلاف قيمها، وتبدل أسعار الحاجات الضرورية والكمالية[6]".

ويعالج ابن خلدون أيضا في مقدمته قيمة العمل وأهميته بحيث يتطرق إلى أسباب وقوع الظلم في قيمة العمل منها:" جهل المظلوم بحقه أو عجزه عن المطالبة به، كذلك يضع معايير للأجر العادل متضمنا قيمة الزمن وجهد المستفيدين من العمل، فضلا عن قدر العمل وشرفه ومدى حاجات المجتمع إليه[7]". بحيث أكد على قيمة العمل"العدل" إلى حد القول" بأن أسباب فقر الدول هو الظلم فهو العدول عن العدل الذي به كثر المال ونماؤه[8]". فالمصدر الأساسي للتنمية الاقتصادية داخل أي مجتمع هو تحقيق العدالة التي بها فلاح الأمم

3-. ابن خلدون، المقدمة الباب الخامس، في اقتصاد العمران في المعاش ووجوه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك، الجزء الأول ص.324.

4-. ابن خلدون مرجع سابق، الفصل السادس من الباب الخامس، 386.

5-. مرجع سابق، ص 409.

6-.ابن خلدون، مرجع سابق ، الفصل الثامن من الباب الخامس،ص 465.

7- مرجع سابق،ص 485.

8- مرجع سابق،ً 487.

ونهوضها، ولقد بشر ابن خلدون الحكومات التي تضطهد شعوبها بأن مصيرها الانحطاط والزلزال.

يعطي ابن خلدون للعمل قيمة كبيرة كذلك، حتى في تلك الأشياء التي تبدو أنها تمت بلا عمل وأنها هبة من السماء مثل الثمار والمعادن...، بحيث يؤكد أنه لابد من القيام بعمل من الأعمال في كل رزق، لكن العمل قد يكون ظاهرا وقد يكون خفيا فقيمته أحيانا تكون أكبر من قيمة الأشياء، التي ينتجها ذلك العمل مثال ذلك أن قيمة العمل المبذول في بناء بيت مثلا أكبر كثيرا من قيمة المواد المستخدمة في بناء البيت، وهنا نستطيع أن نستخلص نتيجة مؤداها : أن قيمة الصنائع تكمن في قيمة العمل المبذول في صناعتها.

في نظر ابن خلدون العمل هو مصدر القيمة وأن المنفعة شرط القيمة، أي أنه لكي تكون للسلعة أو الخدمة قيمة يتعين أن تكون مطلوبة اجتماعيا، ثم يوسع ابن خلدون من فكرته في القيمة ليبحث في تفسير الثمن الجاري للسوق بدلا عن تفسير الثمن العادل كما فعل باقي الدارسين للظواهر الاقتصادية آنذاك، فتلك هي نتيجة تحليل ابن خلدون في إطار النشاط الاقتصادي الذي يعتبره أساس العمران الإنساني في تطوره، فقد صاغ نظرية القيمة في العمل ودفع بها حتى التوصل إلى فكرة فائض القيمة، وعليه يظهر ابن خلدون في ظل مجتمع يقوم على إنتاج المبادلة البسيط كرائد لنظرية القيمة في العمل التي ستصبح محور علم الاقتصاد لاحقا.

وعليه ومما سبق يمكن القول، الذي لا ندعي فيه الاطلاقية بل ينظاف إلى العديد من التفسيرات لأراء ابن خلدون حول أفكاره الاقتصادية التي جاء بها، والتي عالج بها بعض الظواهر الاقتصادية في مجتمعه فيما يلي:

- ✓ ينظر ابن خلدون إلى الاقتصاد في سياقه الاجتماعي دون أن يفرغ الأفكار الاقتصادية من محتواها الاجتماعي، وهذا ما نراه في رأيه في اختلاف أحوال الأجيال باختلاف نحلهم من المعاش، وفي رأيه في الفرق بين البدو والحضر الذي هو فرق في انتحال الزراعة أو انتحال الصنائع، و في أن نمو الأعمال واختلافها تابعان لنمو العمران وتنوعه، و في اختلاف قيمة العمل المرتبط بدرجة اختلاف العمران، و في أن فساد الحياة الاقتصادية يؤدي إلى فساد الأخلاق.
- ✓ يعطي ابن خلدون للعمل قيمة كبيرة في الأشياء، حتى تلك التي تبدو في الوهلة الأولى أنها هبة من السماء، مثل الحليب والثمر والمعدن، هذا جوهر نظرية كارل ماركس في العمل، غير أن ماركس يذهب إلى العمل ويعطيه القيمة الأولى في الأشياء، على حين أن ابن خلدون يقف عند حدود سرد الوقائع .وهذا أقرب إلى الروح العلمية، لأن المذهبية فلسفة.
- ✓ إن رخص الحاجات الضرورية وغلاء الحاجات الكمالية، نواة قانون العرض والطلب الذي يعتمد عليه الاقتصاد الرأسمالي، وأنه إذا لم ينص عليه في صورة قانون صريح، فإن هذا القانون متضمن في عرضه للأحوال التي تطرأ على هذه الحاجات. وقد بينا في تحليلنا هذا الكلام، كيف أن توافر الحاجات الضرورية في الأمصار الكبيرة، يعني أنها معروضة لكل طالب، وأن هذا العرض هو سبب رخصها وأن عدم توافرها في الأمصار

الصغيرة، يعني أنها محجوبة عن كل طالب و هذا الحجب هو سبب غلائها، وهذا ما يتضمن جوهر قانون العرض والطلب.

- ✓ ربط ابن خلدون بين العمل والجباية والعمران، ودعا إلى تقليل الوزائع المفروضة على الناس، ليشجعهم ذلك على العمل. وهذا يعني أن جوهر الحياة الاجتماعية هو الاقتصاد، وهذا ما تلح عليه المذاهب الاقتصادية الحديثة ولاسيما الماركسية، غير أن ابن خلدون ينادي بترك حرية العمل للناس، وعند تدخل الدولة في شؤونهم الاقتصادية، في حين تنادي الماركسية بالتدخل وإشراف الدولة على الاقتصاد.
- ✓ درس ابن خلدون الحاجات البشرية، واعتبر بأن الإنسان يحتاج إلى أشياء أساسية وأخرى ثانوية، حيث تنشأ الحاجات الكمالية مع كل رقي وتطور يعرفه المجتمع.
- ✓ بين طبيعة الإنتاجية وتقسيم العمل، وأكد على إن إنتاج السلع يحتاج إلى تعاون أفراد المجتمع وتقسيم العمل بينهم، كما ميز بين عوامل الإنتاج وهي العمل وأرس المال والموارد الطبيعية، واعتبر العمل أهمها.
- ✓ أن الدخل لا يتحقق إلا نتيجة العمل، وقام بالتمييز بين أنواع النشاط الاقتصادي المختلفة.
- ✓ وضوح تأثير العرض والطلب في تحديد مستوى الأسعار وتقلباتها، كما بحث في أثر اختلاف الثروة فيما بين الدول على طلب كل منها على أنواع السلع المختلفة وعرضها، وأثر كل ذلك على ما يعرف اليوم بالمستوى العام للأسعار.
- ✓ حلل تطور المجتمع وتقدمه الاقتصادي، وبين أن تزايد السكان يؤدي إلى تقسيم العمل وهو بدوره يؤدي إلى زيادة الإنتاج ودخل أفراد المجتمع، ويدفعهم ذلك إلى توجيه جزء من نشاطهم الإنتاجي لإنتاج السلع الكمالية وبالتالي يزداد الطلب على هذه السلع أيضا.

تلكم هي آراء ابن خلدون في الاقتصاد، التي لا نزعم فيها أنها هي الأفكار الوحيدة الخلدونية التي ساهمت في نشأة علم الاقتصاد، بل ما هي إلا قاعدة تنظاف إلى عدة بيداغوجيات معرفية أخرى لدى أساتذة آخرين، لكن كلها تؤكد أنها ساهمت في نشأة علم الاقتصاد، أراء لا تخلو من جدة ونفاذ نظر، لاسيما إذا نظرنا إليها في الإطار التاريخي والحضاري الذي كتب فيه ابن خلدون.